

بسم الله الرحمن الرحيم

برنامج حياة الشباب في صدر الإسلام

الحلقة السابعة والثمانون

مالك بن أنس (رحمه الله)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد : -

أيها المستمعون الكرام، معشر الشباب ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، نقف اليوم مع طرف من حياة فتى من فتيان الإسلام ، الذي ساد في العلم صغيراً ، فبرع وأفقى ولم يتجاوز سن الحادية والعشرين ، إنه الإمام مالك بن أنس.

ومع ما بلغ الإمام مالك (رحمه الله) من سعة العلم في حداثة سنه فإنه لم يجب في الفتوى حتى اذن له مشايخه في ذلك ، فلم يغتر بما معه من العلم آن ذاك ، وفي هذا الجانب من حياته يحدثنا عن نفسه (رحمه الله) فيقول : ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني هل تراني موضعاً لذلك، سألت ربيعه وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك قيل فلو نُهوك قال كنت أنتهي لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه .

وفي هذه المقولة من الإمام مالك (رحمه الله) فائدة لطلاب العلم من الشباب ، في مراجعة مشايخهم ومن هو أعلم منهم، والاستفسار عن صلاحيتهم للتدريس والفتوى ، فإن بعض الشباب قد يحملهم حب الظهور وإبراز النفس على التصدي للفتوى وهو ليس أهل لها ، وربما حمل بعضهم على الفتوى خشية أن يقال ليس عنده علم ، فليثق الله من كانت هذه حاله ، وليحل الفتوى إلى من هو أعلم منه ، ولا يفتي بغير علم . فإن الفتوى بغير علم إضلال للمستفتي ، وهلاك للمفتي .

وعودة مرة أخرى إلى سيرة ذلك الإمام مالك بن أنس (رحمه الله) فقد كان شديد التواضع ، شديد الخوف على نفسه ، وهذه سيما الصالحين وعلامة المتقين ، قال خلف ودخلت عليه فقال ما ترى فإذا رؤيا بعثها بعض اخوانه يقول رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام في مسجد قد اجتمع الناس عليه فقال لهم إني قد خبأت تحت منبري طيبا أو علما وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس فانصرف الناس وهم يقولون إذا ينفذ مالك ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بكى فقامت عنه .

ولم تكن الدنيا تساوي عند الإمام شيئا ، فهو لا يريد من أحد عطاءً ، فعن عروة قال قدم المهدي فبعث إلى مالك بألفي دينار أو قال بثلاثة آلاف دينار ثم اتاه الربيع بعد ذلك فقال إن أمير المؤمنين يحب أن تعادله إلى مدينة السلام فقال قال النبي صلى الله عليه وسلم المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون والمال عندي على حاله .

أي أن المال الذي بعث به الخليفة من قبل إلى مالك لم يتصرف فيه مالك بشيء بل بقي المال على حاله ، إما على نية رده أو على نية دفعه إلى من يحتاجه ، أما الإمام مالك نفسه فإنه لا حاجة له في هذا المال .

وكان الإمام مالك يصون العلم ويحترمه ، فلا يبذله إلا لأهل الجدد في طلبه ، ويدل على ذلك موقفه مع المهدي وأولاده ، فعن ياسين بن عبد الأحد حدثني عمر بن الحبر الرُعيني قال قدم المهدي المدينة فبعث إلى مالك فأتاه فقال لهارون وموسى اسمعا منه فبعث إليه فلم يجبهما فأعلم المهدي فكلمة فقال يا أمير المؤمنين العلم يؤتى أهله فقال صدق مالك صيرا إليه فلما صاروا إليه قال له مؤدبهما اقرأ علينا فقال إن أهل المدينة يقرؤون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم فإذا أخطؤوا ، أفتاهم ، فرجعوا إلى المهدي فبعث إلى مالك فكلمه فقال سمعت ابن شهاب يقول جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال وهم يا أمير المؤمنين سعيد بن المسيب وابو سلمة وعروة والقاسم وسالم وخارجه بن زيد وسليمان بن يسار ونافع وعبد الرحمن بن هرمز ومن بعدهم ابو الزناد وربيعه ويحيى بن سعيد وابن شهاب كل هؤلاء يقرأ عليهم ولا يقرؤون فقال في هؤلاء قدوة صيروا إليه فاقروا عليه ففعلوا .

وعن هارون بن موسى القروي سمعت مصعبا الزيري يقول سأل هارون الرشيد مالكا وهو في منزله ومعه بنوه أن يقرأ عليهم قال ما قرأت على أحد منذ زمان وإنما يقرأ علي فقال أخرج الناس حتى أقرأ أنا عليك فقال إذا منع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص وأمر معن ابن عيسى فقرأ عليه .

وكان مجلس الإمام مجلس وقار وحلم وكان رجلا مهيبا نبیلا ليس في مجلسه شيء من المرء واللغظ ولا رفع صوت وكان الغرباء يسألونه عن الحديث فلا يجيب إلا في الحديث بعد الحديث وربما أذن لبعضهم يقرأ عليه وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة ولا ينظر أحد في كتابه ولا يستفهم هية المالك وإجلالا له وكان حبيب إذا قرأ فأخطأ فتح عليه مالك وكان ذلك قليلا .

هذه مجالس أهل الفضل والعلم تتميز بالهبة والوقار ، وليس فيها إلا ذكر الله ومدارسة العلم ، والكلام النافع ، فإين هذه الصفات من مجالس بعض الشباب اليوم ، التي يكثر فيها اللغظ والسفه ، والسب والشتيم ، والحديث بما يضر ولا ينفع ، ألا يعلم شبابنا أنهم مؤاخذون بحصائد ألسنتهم ، كما ورد التوجيه النبوي لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه) بذلك ، حينما أخبره بأبواب من الخير قال له بعد ذلك : (أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ قُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ كُفَّ عَيْنَكَ هَذَا فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فَقَالَ ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) أخرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح .

ثم ألا يعلم هؤلاء الشباب أن الله سبحانه وتعالى يقول : { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } . وَيَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ بِهِ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ .

هذه النصوص وغيرها الكثير توجه الفرد المسلم أن يحفظ لسانه ، وتحذره من خطر قوله ، فلعل شباب الإسلام يدركون خطر الأقوال السيئة فيحفظوا ألسنتهم منها ، وينزهوا مجالسهم منها .

وفي المقابل فإننا نجد من فضل الله سبحانه وتعالى بعضاً من الشباب قد أدركوا ذلك وحفظوا ألسنتهم ومجالسهم عن النطق إلا بخير من طلب علم أو ذكر أو كلام مباح .

أيها المستمعون الكرام ، معشر الشباب ، في الختام نسأل المولى جل وعلا أن يلهمنا رشدنا ، وأن يوفقنا لصلاح ديننا ودنيانا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وإلى أن ألقاكم أستودعكم الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .